

الخصائص المعنوية : لعل أول ما يلاحظ على معاني الشاعر الجاهلي أنها معان واضحة بسيطة ليس فيها تكلف ولا بعد ولا إغراق في الخيال؛ ومرجع ذلك في رأينا إلى أنه لم يكن يفرض إرادته الفنية على الأحاسيس والأشياء؛ وعرف القدماء ذلك فكلما تحدثوا عن عادات الجاهلين وألوان حياتهم استشهدوا بأشعارهم. وحينما كتب الجاحظ كتاب الحيوان وجد في هذه الأشعار مادة لا تكاد تنفذ في وصفه ووصف طباعه وكل ما يتصل به من سمات ومشخصات. بل يخضعون لها ويضبطون خيالاتهم وانفعالاتهم إزاءها. ونحن بهذا الوصف إنما نقصد إلى جمهور أشعارهم؛ وخذ فضائلهم التي طالما أشادوا بها في حماساتهم ومراثيهم ومدائحهم، فستجدها دائماً تساق في مادة الإنسان الحسية، فالكرم مثل البخل والوفاء وغيرهما من الفضائل والردائل لا بد أن يقترن بشخص معين يتحدثون عنه ويشبه أسنانها بالأقحوان وبنانها بالعنم وثرغها بالبللور وخذها وترائبها بالمرآة وشعرها بالحبال والحيات والعناقيد ووجهها بالدينار وثديها بأنف الظبي ورائحتها بالمسك وبالأترجة وريقها بالخمير وبالعسل وعينها بعين البقرة والغزال وعجزها بالكثير وساقها بالبردية أما الرجل فيشبهه بالبحر وبالغيث والأسد وبالذئب وبالعقاب وبالبعير وبالبدن والقمر وبالرمح والسيف وبالبقرة والتمسك والضبع وبالأفعوان والحية وبالكلب والحمار وبالصخرة وبالصقر وبالفحل. فالشاعر يستقي أخيلته من العالم الحسي المترامي حوله. فهو يستوفي ما يصفه بجميع أجزائه وتفصيله الدقيقة. وخير مثل لذلك وصف طرفه لناقته في معلقته فقد نعت جميع أعضائها وكل دقيقة فيها وجليلة. بل جعلتهم يدورون حول معان تكاد تكون واحدة، وكأنما اصطلحوا على معان بعينها، فالشعراء لا ينحرفون عنها يمناً ولا يسرة، فكل شاعر يحاول أن يعطيها شيئاً من شخصيته، يقول علباء بن أرقم: 1: ورابع يجعل وجه الشبه حور العين، كتنفس الظبي البهير وما يزال كل شاعر يضيف تفصيلاً جديداً. وخذ مثلاً تصويرهم للرجال بالكواكب وكنا نجومًا كلما انقض كوكبٌ . دجى الليل حتى نظم الجزع ثاقبه6 إذا طلعت لم يَبْدُ مِنْهُنَّ كوكب فهم دائماً راحلون وراء الغيث ومساقط الكلا، يقول: أُمُونِ كَأَلْوَا حِ الْأَرَانِ نَسَأْتُهَا . كما يجد فيها روعة وبهاء؛ وعلى هذا النحو كانوا يصفون خيولهم وكانوا ينتقلون منها ومن وصف النوق إلى وصف النعام وبقر الوحش وثورها والأتن وحمارها ويصورونها لنا وهي تجري في الصحراء تطلب الماء، وقد يُدخلون هذه الحركة في المقدمة نفسها؛ أو على الأقل كانت من أهم البواعث على سرعتها؛ وتتألف القصيدة من طائفة الأبيات أو البيوت المستقلة التي يكتفي فيها كل بيت غالباً بنفسه؛ فهذا الفضاء الرحب الطليق المترامي من حولهم في غير حدود هو الذي أملى عليهم صورة قصيدتهم؛ يحملون قسيهم الحمر، وكان يقتتر عليهم في الطعام خشية أن تطول بهم الغزوة فيهلكوا جوعاً.